

أودية بلاد المغرب الأوسط ودورها في الاستقرار والبناء الحضاري
(ظهور الزراعة وبناء المدن أنموذجا).

The valleys of the Central Maghreb and their role in stability and civilizational construction (the emergence of agriculture and city-building as a model)

مرزاق بومداح^{*}

¹ مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، الجزائر

merrzzakk@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/11/02، تاريخ القبول: 2025/10/28، تاريخ النشر: 2025/10/30

ملخص:

تتوفر بلاد المغرب الأوسط على عدة أودية نذكر منها وادي الشلف، وبسكرة، وسطيفيسف (تلمسان)، وبيطام، وسهر، وتنس، ومينا. وقد برزت أهمية مياه هاته الأودية ودورها في نشأة العديد من مدن وقرى بلاد المغرب الأوسط كقلعة بني حماد، وتيهرت، وتلمسان، وطبنة، وبسكرة، والمسيلة، وغيرها، فكانت هاته الوديان من عوامل استقرار وجذب السكان من مختلف المناطق والأقاليم سواء من داخل البلاد أو خارجها، كما كان لمياه هاته الأودية الدور الكبير في تحقيق الازدهار الاقتصادي، وخاصة في جانبه الزراعي، وقد استخدم مزارعو بلاد المغرب الأوسط بعض التقنيات للاستفادة من مياه هاته الأودية لسقي أراضيهم الزراعية، وقد أدى ذلك إلى وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها.

ولإنجاز هذه الدراسة اعتمدت على المنهج الوصفي، من خلال الاطلاع على كل ما كتب حول هذا الموضوع، والمنهج التحليلي، من خلال تحليل الأفكار ودراستها، وعلى المنهج الإحصائي عند ذكر أهم وديان بلاد المغرب الأوسط، وأهم المدن التي نشأت على ضفافها، وذكر أهم المحاصيل الزراعية التي كانت تعتمد على مياه هاته الوديان، كما استعنت ببعض الجداول والخرائط التوضيحية التي تخدم الموضوع.

الكلمات المفتاحية: المغرب الأوسط؛ الأودية؛ المدن؛ الزراعة؛ البناء الحضاري.

Abstract:

The Central Maghreb has several valleys, including Wadi Chlef, Biskra, Setifesif (Tlemcen), Bittam, Seher, Tennis, and Mina. The importance of the waters of these valleys and their role in the emergence of many cities and villages of the Central Maghreb, such as Qala'at Bani Hammad, Tihret, Tlemcen, Tabna, Biskra, M'sila, and others, has become evident. The waters of these valleys also played a major role in achieving economic prosperity, especially in the agricultural aspect. The farmers of the Central Maghreb have used some techniques to take advantage of the waters of these

^{*}اسم مرسل المقال

valleys to irrigate their agricultural lands, and this is the abundance and diversity of agricultural crops.

To accomplish this study, I relied on the descriptive approach, by looking at all that was written on this subject, and the analytical approach, by analyzing and studying ideas, and on the statistical approach when mentioning the most important valleys of the countries of the Central Maghreb, and the most important cities that arose on their banks, and mentioning the most important agricultural crops. Which depended on the waters of these valleys, and also made use of some illustrative tables and maps that serve the subject.

Keywords: Central Maghreb; Valleys; The cities; Agriculture; Civilized construction.

مقدمة :

يعتبر الماء عنصر الحياة على وجه الأرض، وبانعدامه تنعدم الحياة، ونظرا لأهمية الماء فقد ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى: *أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا سَوَاحِلَ مَاءٍ كَلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ* (سورة الأنبياء، الآية: 30)، وقد أكد الله تعالى عن دور المياه في انبات الحقائق والبساتين في الآية الكريمة: *أَمَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَاقٍ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْلَمُونَ* (سورة النمل، الآية: 60)، وقد أشار القرآن الكريم إلى مورد مائي مهم ألا وهي الأنهار، وهذا في قوله تعالى: *أَمَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ* (سورة النمل، الآية: 61)، كما ورد ذكر الأودية في القرآن الكريم حيث قال الله عزو جل في محكم تنزيله: *أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ* (سورة الرعد، الآية: 17).

وتتوفر دول المغرب الإسلامي على العديد من الأنهار والأودية منها: المغرب الأوسط (الجزائر) الذي يتوفر على العديد من الأودية سواء كانت ساحلية أو داخلية، نذكر على سبيل المثال لا الحصر وادي الشلف، ووادي الكبير (الصومام)....إلخ، كما يتوفر المغرب الأدنى على واد مهم هو وادي مجردة الذي ينبع من الجبال الشرقية الجزائرية ويصب في المغرب الأدنى (تونس)، كما يتوفر المغرب الأقصى (المملكة المغربية) على عدة أودية منها وادي أم الربيع ووادي سبو ووادي ملوية ووادي درعة.

ومن هنا يتبادر إلى الذهن التساؤل التالي: هل ساهمت أودية بلاد المغرب الأوسط في جذب السكان والاستقرار حولها، وظهور الزراعة ونشوء العديد من القرى والمدن؟

نحاول من خلال هذه الدراسة التعريف بأهم أودية المغرب الأوسط، وذكر أبرز قراه ومدنه التي قامت على ضفاف هاته الأودية، وما قام به مزارعو المغرب الأوسط من منشآت للتغلب على مشكلة انعدام الأنهار الدائمة الجريان. والطرق الكفيلة التي استخدمها هؤلاء للاستفادة من مياه هاته الوديان التي تتميز بتذبذبها وتقلبها الشديد. وكيف ساهمت مياه هاته الأودية في سقي الأراضي الزراعية، وتحقيق الازدهار الاقتصادي خاصة في الميدان الزراعي.

ومن الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع أودية المغرب الأوسط كتاب الجزائر لتوفيق المدني حيث أفرد مبحثا خاصا عن أودية الجزائر وقسمها إلى أودية تصب في البحر الأبيض المتوسط وأخرى داخلية تصب في الشطوط ورمال الصحراء، وذكر منابع

هاته الأودية ومصباتها، وإن كان قد تناولها من جانب جغرافي بحث، ولم يذكر لنا دور هاته الأودية في الاستقرار والبناء الحضاري بالمنطقة، وهذا باعتبار أن موضوع كتابه عام قد تناول جوانب عديدة عن تاريخ بلاد المغرب الأوسط السياسية والإدارية والاقتصادية، وهناك أيضا رسالة دكتوراه غير منشورة للباحثة خيرة سياب بعنوان المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب (10-16هـ/13-16م) حيث خصصت جانباً منها لأودية المغرب الأوسط، وإن كانت هناك بعض المجالات قد أشارت إليها بصورة موجزة تحتاج إلى الزيادة في البيان والتفصيل، وهذا باعتبار أن موضوع دراستها يشمل بلاد المغرب الإسلامي كله. ونحاول من خلال هاته الدراسة التطرق إلى ما أغفله هذان الباحثان وغيرهم عن ذكره والتركيز على دور أودية المغرب الأوسط في الاستقرار والبناء الحضاري.

1- التعريف بأهم أودية المغرب الأوسط:

تحتوي بلاد المغرب الأوسط (الجزائر حالياً) على موارد مائية متنوعة، ومنها العديد من الأودية، وقبل الحديث عن أهم هذه الأودية يجدر بنا التنبيه إلى أربعة أمور: الأول أنه ليس هناك تفريق بين الأنهار والأودية عند الجغرافيين والرحالة والمؤرخين في العصور الوسطى، فما يسميه البعض نهر يسميه الآخر وادي فالحميري قد ذكر أن لتنس نهر يأتيها من الجبال، (الحميري محمد بن عبد الله، 1980، ص 138). في حين اتفقا كلا من الإدريسي والقزويني على وصف هذا المجرى بالواد (القزويني زكريا بن محمد، د.ت)، (ص 173) (الإدريسي محمد بن محمد، 1409هـ، ج 1، ص 251). الثاني: أن الأودية الموجودة بشرق المغرب الأوسط قصيرة والسهول المحيطة بها ضيقة، في حين أن الأودية الموجودة في الجهة الغربية كثيرة المياه، والسهول المحيطة بها واسعة. (سليم حاج موسى وبن موسى محمد، 2019، ص 100)، الثالث: أن أودية المغرب الأوسط تتميز بكثرة مياهها وفيضانها في فصل الشتاء، وبقلتها أو جفافها في فصل الصيف (الميلي مبارك بن محمد، د.ت)، ج 1، ص 50-51) الرابع: هناك أودية تصب في البحر وهناك أودية تصب في الصحراء أو في الشطوط. ومن أهم أودية المغرب الأوسط نذكر ما يلي:

-وادي الشلف: يعد وادي الشلف من أكبر أودية المغرب الأوسط، وينبع من سلسلة الأطلس الصحراوي بجبل راشد (جبال العمور) بالقرب من مدينة آفلو بولاية الأغواط الحالية، حيث يسمى هناك بواد الطويل، وهو يتجه من الجنوب إلى الشمال، فيقارب طوله حوالي 700 كيلومتر ، وعند اصطدامه بجبل زگار يُحول اتجاهه من الشرق إلى الغرب، فاصلاً بذلك بين جبال الونشريس في الجنوب، وجبال الظهرة في الشمال، ليصب في البحر الأبيض المتوسط شرقي مدينة مستغانم، وتمده في طريقه أودية أخرى، وكان هذا الوادي في السابق دائم الجريان غير أن نسبة تدفق المياه فيه تهبط صيفاً إلى منخفضات جدا لتصل في بعض السنوات إلى متر مكعب واحد في الثانية (1م³/ثا)، بينما تصل تلك النسبة في فيضانه الشتوي إلى 4200م³/ثا، وهي كمية كبيرة تعادل فيها نسبة فيضان نهر كبير كالفرات مثلاً (الميلي مبارك بن محمد، د.ت)، ج 1، ص 50-51) (موسى هوارى، 2016-2015، ص 163-164) (المدني، 1350هـ، ص 171)، وقد أكد اليعقوبي غزارة مياه وادي الشلف بقوله: "يفيض كما يفيض نيل مصر". (اليعقوبي أحمد بن إسحاق، 1422هـ، ص 197) وقد وصف الحميري هذا الوادي بقوله: "نهر بالمغرب مشهور بقرب مليانة" (محمد بن عبد الله الحميري، 1980، ص 343). أنظر الخريطة رقم 01.

-وادي تنس: ذكر صاحب كتاب الاستبصار أن هذا الوادي يسمى تامن، وهو يأتيها من جبال القبلة ثم يستدير بها من جهة الشرق والجوف، ويصب في البحر (مجهول، 1986، ص 133)، وأما البكري فقد وصفه بقوله: "نهر يسمى تناتين يأتيها من جبل

على مسيرة يوم فيأتيها من القبلة ويستدير بها من جهة الجوف والشرق ويريق في البحر. (البكري عبد الله، 1992، ج 2، ص 726)، وأما الحميري فقد ذكره باسم نتاتين (الحميري، 1980، ص 138).

-أودية تهرت: تتوفر تهرت على عدة أودية، ومنها كما يذكر البكري مينة وهو يأتي من جهة القبلة، ثم يتوجه شمالاً إلى أن يصب في البحر، وهناك واد آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش وهو يقع في شرق تهرت (البكري عبد الله، 1992، ج 2، ص 733-734)، ووصف المقديسي تهرت بأنها مدينة أحدقت بها الأنهار والتفت بها الأشجار، وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين (المقدسي محمد، 1991، ص 228).

-وادي تلمسان (سطفسييف): يعرف هذا الوادي كما يذكر البكري والحميري باسم سطفسييف وهو ينبع من أسفل جبل البغل، ويصب في بركة عظيمة من عمل الأول ويسمى لوقوعه فيها خير شديد على مسافة، ثم ينبثق منها بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهاز وإلى ولج الحناء إلى جنان الحاج حتى يصب في نهر أسر، ثم يصب في وادي التافنة، وهو الواد الذي يصل إلى ساحل مدينة أرشقول، وهناك يصب في البحر. (البكري عبد الله، 1992، ج 2، ص 746-747).

-وادي التافنة: وهو وادي يميل إلى الصغر، وينبع من جبال أنقاد ثم يتجه نحو الشمال عبر قفر أنقاد إلى أن يصب في البحر بعدما يتصل بوادي عباس ووادي المويلج، ويمر على مدينة تلمسان بنحو 19 ميلاً. (المدني توفيق، ص 172) (الوزان الحسن، 1983، ج 2، ص 250-251).

-وادي يسر: ينبع من جبال الأطلس التلي من منطقة بني سليمان وأومال، ويصب عند رأس جنات قرب قرية بني عبد الله في دلس (المدني، 1350هـ، ص 171) (كريخال مارمول، 1984، ص 39).

-وادي بجاية أو وادي الصومام: وصف البكري واد بجاية بقوله: "وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة (البكري، 1992، ج 2، ص 752)، وذكره الإدريسي بقوله: "وعلى بعد ميل منها نهر يأتيها من جهة المغرب من نحو جبل جرجرة وهو نهر عظيم يجاز عند فم البحر بالمراكب وكلما بعد عن البحر كان ماؤه قليلاً ويجوز من شاء في كل موضع منه (الإدريسي، 1409هـ، ج 1، ص 260)، وأما صاحب كتاب الاستبصار: "ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميّلين أو دونهما (مجهول، 1986، ص 130)، وواد بجاية هو نفسه واد الصومام، وكان يعرف في العصر الوسيط بالوادي الكبير أو وادي الساحل، ومنبعه من جهة شقرا بصحراء الجنوب في إقليم الزاب، ويصب في البحر قرب مدينة بجاية، ومن خلال ما ذكره الإدريسي فإن السفن كانت تشق واد بجاية عند قربه من البحر وهذا خلال العصر الحمادي (ابن سعيد علي، 1970، ص 142) (بن عميرة محمد ولطفية بشاري، 2015، ص 16)، ويتميز هذا الواد بطوله، وإذا استثنينا سهول سطيف وحمة (البويرة حالياً)، فإن جميع المناطق التي تمر بها فروعها تتكون من أرض جبلية الأمر الذي ينجم عنه فيضانات وسيول خاصة في فصل الشتاء، وخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات لسكان هاته المناطق، ويذكر كريخال أن النصارى كانوا يطلقون على هذا الوادي اسم زنكنور (كريخال مارمول، 1984، ص 39-40).

-أودية قسنطينة: وهي على ثلاثة أودية عظام تجري فيها السفن قد أحاطت بها، ومصدر مياه هذه الأودية كما يذكر البكري عيون تعرف بعيون أشقار تفسيره سود، وتقع هذه الأودية في خندق بعيد القعر متناهي البعد قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا، ثم بني عليها قنطرة ثانية ثم على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا، ثم بني فوقهن بيت ساوي حافتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده (البكري، 1992، ج 2، ص 728-729)، وقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار ما نصه: "ونهرها الكبير يدخل على ذلك الخندق ويدور بالمدينة فيسمع لجريانه في ذلك الخندق دوى عظيم هائل وصوت مفرع لمن يقرب منه (مجهول، 1986، ص 165)، وذكر لنا الوزان أن مدينة قسنطينة محاطة بالجنوب بصخور عالية يمر عند قدمها نهر اسمه سوفغمار، والصفة الأخرى لهذا النهر محاطة أيضاً بصخور، وهذا

الوادي ينبع من نواحي جبال الأوراس ثم ينحدر مارا بسهول يابسة فحلة فيمر على مدينة قسنطينة ليصب في البحر. (الوزان الحسن، 1983، ج1، ص55-56) (كريخال مرمول، 1984، ج1، ص40)، بمعنى أن هذه المدينة يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها (الإديسي، 1409هـ، ج1، ص265).

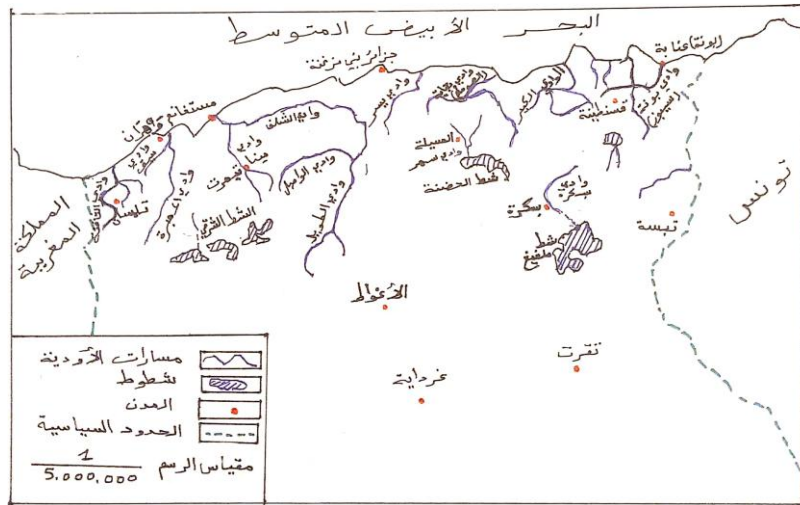
-وادي تبسة: من الأودية الداخلية، وكان يطلق عليه اسم وادي ملاق، وهو يقع شرق مدينة تبسة، وهو واد صعب كثير الدهس وعر المخاض (البكري، ج2، ص710، 832)، وأما صاحب كتاب الاستبصار فيذكر اسم هذا الوادي بقوله: "وبقرب مدينة تبسا، واد يعرف بوادي ملان. وهو يقل في أيام الصيف". (مجهول، 1986، ص163)، ويذكر ابن سعيد أن هذا الوادي من أجل الأودية وهو يمر بغرب مدينة المسيلة، وتغوص مياهه في الصحراء. وهو بالتالي من الأودية الداخلية. (ابن سعيد، 1970، ص126).

-وادي سهر: كان هذا الوادي يطلق عليه اسم نهر سهر الذي بنيت عليه مدينة المسيلة، وأما عن منبعه فهو ينبع من عيون داخلية مدينة غدير وآروا، وأما صاحب كتاب الاستبصار فيصفه لنا بأنه نهر يجتمع من العيون في موضع دهس يخرج منه هذا النهر، ويسمى نهر سهر ويمشي من هناك إلى مدينة المسيلة. (مجهول، 1986، ص167). ويذكر ابن سعيد أن هذا الوادي من أجل الأودية وهو يمر بغرب مدينة المسيلة، وتغوص مياهه في الصحراء، ويذكر المدني أن هذا الوادي يصب في شط الحضنة، ويعتبر هذا الوادي من الأودية الداخلية. (ابن سعيد، 1970، ص126) (المدني، 1350هـ، ص172).

وادي بيطام: وهو واد يمر على مدينة طبنة، وهي حاليا تقع في بلدية بركة بولاية باتنة، ويتميز هذا الوادي بغزارة مياهه بحيث أنه إذا فاض سقى جميع بساتين مدينة طبنة، وهو من الأودية الداخلية. (البكري، 1992، ج2، ص712).

-وادي بسكرة: يشق هذا الوادي غابة بسكرة، وهو كما يصفه صاحب كتاب الاستبصار نهر كبير ينحدر من جبل الأوراس، وتغوص مياهه هذا الوادي في الصحراء، وهو بالتالي من الأودية الداخلية. (مجهول، 1986، ص173).

-وادي بونة (عنابة): ذكر البكري هذا الواد بقوله: "وبغربي هذه المدينة ماء سائح يسقي بساتينها" (البكري، 1992، ج2، ص717)، وهو واد متوسط يصب في البحر من جهة غرب مدينة بونة، وينبع هذا الواد الذي يذكر كريخال باسم يدوش من جبال الأطلس التلي قرب قسنطينة، ثم يسيل مسرعا منذ خروجه من منبعه بين الجبال منحدرًا إلى السهول، إلى أن يصب في البحر المتوسط على القرب من مدينة عنابة من الجهة الشرقية. (ابن سباهي زاده، 2006، ص230) (كريخال، 1984، ج1، ص40).



خريطة رقم 01 تمثل أهم أودية المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) المصدر: (بوشناق، د.ت، ص111) بتصرف من الباحث.

نلاحظ من خلال الخريطة توفر بلاد المغرب الأوسط على العديد من الأودية، وإن كانت معظمها تتميز بقصر مجراها باستثناء وادي الشلف.

2- أهم المدن والقرى التي أنشئت على ضفاف أو بالقرب من أودية المغرب الأوسط:

كان لتوفر بلاد المغرب الأوسط على موارد مائية متنوعة، ومنها العديد من الأودية الساحلية والداخلية أن أدى ذلك إلى ظهور عدة مدن وقرى على ضفاف هاته الأودية، ومن أهمها نذكر ما يلي:

-مدينة تهرت: ذكر لنا الإدريسي المسافة الموجودة من تلمسان إلى مدينة تاهرت بأربع مراحل، وبين مدينة تاهرت والبحر أربع مراحل أيضا (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص255). بينما حدد الحموي موقعها ببعدها عن مدينة المسيلة بست مراحل، وذكر أنها تقع بين تلمسان وقلعة بني حماد (الحموي، 1995، ج2، ص7). ويرجع تاريخ تأسيس هاته المدينة إلى عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، الذي كان حاكما على مدينة القيروان من طرف أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع أيام تغلبه على بلاد إفريقية، ولما دخل ابن الأشعث العباسي مدينة القيروان بعد أن تمكن من هزيمة جيش أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع وقتله، فرّ عبد الرحمن بن رستم إلى الغرب بما خلف من أهله وماله؛ فاجتمعت إليه الإباضية، وعزموا على بناء مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تهرت، وكانت محاطة بثلاثة أودية فبنوا مسجدا من أربع بلاطات، واختط الناس مساكنهم.(ابن عذارى، 1983، ج1، ص72، 196)، وأصبحت تهرت منذ ذلك الحين عاصمة للدولة الرستمية وهذا ابتداء من سنة 160هـ/ 777م إلى غاية سنة 296هـ/ 909م، وهو تاريخ سقوطها على يد أبي عبد الله الشيعي، وقد برزت أهمية مدينة تهرت في كونها تقع على سفح جبل يقال له جزول أو قرقل كما ذكر ذلك صاحب كتاب الاستبصار، ومما زاد من أهمية هذه المدينة كونها محاطة بثلاثة أودية كما ذكر لنا ذلك ابن عذارى، وفي هذا الصدد يذكر البكري ما نصه: "وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمّى مينه وهو في قبليها. ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمّى تاتش، ومن تاتش، شرب أرضها وبساتينها وهو في شرقيها (البكري، 1992، ج2، ص733-734) (مجهول، 1986، ص178). بينما وصفها المقدسي بقوله: "هي بلخ المغرب قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبتت حولها الأعين. (المقدسي، 1991، ص228).

-مدينة قلعة بني حماد (أبي طویل): بعد أن تخلص حماد بن بلكين من وصاية الأمير الزيري باديس قام ببناء عاصمته الجديدة في سنة 398هـ/ 1007م، في شمالي المسيلة على جبل عجيسة، وهو جبل عظيم من جبال كيانة، وهو المعروف الآن بجبل المعاضيد، حيث يطل هذا الجبل على بحيرة الحضنة، (روجي روجي الهادي، 1992، ج2، ص99) (عويس، 2002، ص ص91-92)، وهذه القلعة كما يذكر الإدريسي: "متعلقة بجبل عظيم مطل عليها وقد احتوى سورها المبني على جميع الجبل المذكور طولا وعرضا وأمامها في جهة الجنوب أرض سهلة متصلة الانفراج لا يرى الناظر فيها جبلا عاليا ولا شرفا مطلا إلا على بعد منها وعلى مسير أربع مراحل يرى جبلا لا تبين" (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص261) وكانت هذه المدينة الحصينة يطلق عليها من قبل اسم قلعة أبي طویل، وقد تم تعمير هذه القلعة بسكان المسيلة وحمزة من قبائل زناتة، وتم استقدام قبيلة جراوة من المغرب، (روجي روجي الهادي، 1992، ج2، ص99)، وقد حدد القطيعي والحميري موقع قلعة بني حماد بأن بينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلا، وبينها وبين بجاية مسيرة أربعة أيام، بينها وبين بسكرة مرحلتان، وهي قريبة من مدينة مقرة، وهي قرب مدينة أشير، وهي من أكبر البلاد قطراً وأكثرها خلقاً وأغزرها خيراً، وأوسعها أموالاً، وأحسنها قصوراً ومساكن (الحميري، 1980، ص469) (القطيعي، 1412هـ، ج1، ص197، ج3، ص1118، 1299)، ويصف لنا صاحب كتاب الاستبصار قلعة بني حماد بقوله: "مما يلي بلاد الصحراء وهي مدينة عظيمة تقع على نهر عظيم في جبل عظيم، وهي حصينة منيعة لا تمكن بقتال. وكانت دار مملكة بني حماد من قبيلة صنهاجة، وهم كانوا ملوك إفريقية أيام بني عبيد". (مجهول، 1986، ص167). وقد أحسن حماد بن بلكين في اختيار

موقع هذه المدينة حيث أنها محصورة بين سفحين شديدي الانحدار، بالإضافة إلى ذلك توفرها على واد يطلق عليه اسم وادي فرج الذي يقع على الجانب الأيمن من القلعة، حيث ينحدر جنوبا إلى شط الحضنة. (عويس، 2002، ص ص: 39-94) 0
-مدينة بجاية: يرجع التفكير في بناء مدينة بجاية إلى الأمير الحمادي الناصر بن علناس (481-454هـ/1062-1088م)، وقد اختلف المؤرخون في السبب الذي جعل هذا الأمير يترك قلعة بني حماد ويتوجه إلى المنطقة التي بنى عليها مدينة بجاية، فهناك رأي يمثله ابن الأثير والنويري (ابن الأثير، 1997، ج 8، ص ص: 202-203) (النويري، ج 4، ص ص: 223-226) حيث يرى هذا الاتجاه أن الأسباب التي أسفرت عنها موقعة سببية بالقيروان بهزيمة الأمير الحمادي النصر بن علناس في سنة 457هـ/1064م أمام أبناء عمومته من بني زيري، ونتيجة خيانة بعض القبائل العربية هي جعلته يفكر في بناء مدينة بجاية (عويس، 2002، ص 99)، وأما ابن خلدون فيرى أن الناصر بن علناس قد هجر سكنى القلعة، واختط بالساحل مدينة بجاية خوفا من العرب الهلالية وما قد يحدثونه من فساد وتدمير لمدينته (خلدون، 1988، ج 6، ص 27).

ومن العوامل التي جعلت الأمير الحمادي يختار بناء مدينة بجاية هي إشرافها على وادي عظيم يطلق عليه اسم الوادي الكبير (وادي الصومام حاليا)، وفي هذا يذكر صاحب كتاب الاستبصار ما نصه: "ولها طريق إلى جهة المغرب يسمى بالمضيق على ضفة النهر المسى بالوادي الكبير... هي مشرفة، نزهة، ومطلّة على البحر وعلى فحوص قد أحاطت به جبال دوره نحو 10 أميال، تسقيه أنهار وعيون، وفيه أكثر بساطينهم. ولها نهر كبير يقرب منها بنحو الميّلين أو دونهما". (مجهول، 1986، ص ص: 129-130)

ونظرا لموقع بجاية الاستراتيجي بكونها محاطة بالجبال (مجهول، 1986، ص 129)، ووقوعها على جبل مسيون كما يذكر الإدريسي (الإدريسي، 1409هـ، ج 1، ص 259)، وتوفرها على وادي كبير، واعتدال مناخها وغزارة الأمطار خاصة في فصل الشتاء، فكان لتوفرها على هذا الوادي أعظم الأثر في جعلها مكانا للاستقرار والتعمير، حيث شرع الأمير الحمادي الناصر بن علناس في اجتذاب عدد من السكان للعيش فيها، وكان يفرض على كل من يدخل هذه المدينة أن يجلب معه حجرا أو يدفع قطعة من الذهب، وفي عام 461هـ/1068م انتقل الناصر بن علناس إليها، وبدأ يقوم بعملية البناء حيث أنشأ الكثير من القصور، ومنها قصر اللؤلؤة الذي كان من أعجب قصور الدنيا. (عويس، 2002، ص ص: 103-104).

-مدينة تلمسان: لم تذكر لنا المصادر في حدود ما اطلعت عليه تاريخ تأسيس مدينة تلمسان، وكل ما يمكن قوله أنها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إلى أصبحت في القرن 6هـ/12م عاصمة للدولة الزيانية، وكلمة تلمسان صيغة جمع بالبربرية لكلمة تلمسي التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء، وكانت تلمسان في عهد الرومان تدعى بوماريا أي الحدائق (الوزان، ج 2، 1983، ص 17)، ويذكر الحميري أن بتلمسان آثار كثيرة تدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفه. (الحميري، 1980، ص 135)، يصفها البكري بأنها مدينة مسورة في سفح جبل شجرة الجوز، ولها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة: باب الحّمّام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق باب العقبة، وفي الغرب باب أبي قرّة، وفي الشمال من تلمسان منزل يسمى باب القصر فوقه جبل يسمى جبل البغل ينبعث من أسفله نهر سطفسيّف، ويصبّ في بركة عظيمة، وقد جلب السكان إليها الماء من عيون تسمى لوريط بينها وبين المدينة ستّة أميال (البكري، 1992، ج 2، ص 745)، ويذكر الحميري عن تلمسان بقوله: تلمان: بكسرتين وسكون الميم، والسين مهملة. وبعضهم يقول: تنمسان بالنون عوض اللام، بالمغرب: مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر. إحداها قديمة والأخرى حديثة، اختطّها المثلثون، يقال لها بافرزت، يسكنها الجند وأصحاب السلطان؛ واسم القديمة أقادير، ويسكنها الرعية، فهما كالفسطاط والقاهرة بمصر (الحميري، 1412، ص 272). وقد أصبحت مدينة تلمسان كما يذكر الحميري قاعدة المغرب الأوسط

(الحميري، 1980، ص135)، وخاصة بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الزيانية منذ سنة 1236 إلى غاية سنة 1554م أي حوالي 316 سنة. (عمورة، 2002، ص79)

-مدينة المسيلة: يذكر ابن خلدون وغيره أن الحاكم الفاطمي (العبيدي) أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله الشيعي لما رجع من حركته إلى المغرب في سنة 310هـ/922م اختط مدينة المسيلة، وكان المتولي لبنائها علي بن حمدون بن سماك المعروف بابن الأندلسي، وسماها المحمدية، ولما تم بناؤها عقد له على إقليم الزاب، وأنزله بها، وشحنها بالأقوات (ابن خلدون، 1988، ج4، ص107) (مجهول، 1986، ص171)، ومن أهم القبائل التي استوطنت هذه المدينة نذكر بنو برزال وبنو زنداج وهوارة ومزاتة، وبعد زحف القبائل العربية من بني هلال إلى بلاد المغرب الإسلامي، وكان ذلك منذ منتصف القرن 5هـ/11م أقامت بها قبائل الأثبيج ورياح وغيرهم، وقد تم اختيار مدينة المسيلة لوقوعها على واد، وهذا الوادي يطلق عليه اسم وادي سهر، وهو وادي عظيم منبسط على وجه الأرض، وليس بالعميق (الميلي، ج2، صص182، 183، 199) (ابن حوقل، 1938، ج1، صص64، 84، 86)، وأما البكري فيذكر: "نهر سهر الذي عليه مدينة المسيلة منبعثه من عيون داخلية مدينة غدير وآزوا، وهي مدينة كبيرة أولية بين جبال فيها عين ثرة عذبة عليها الأرحاء وعين أخرى وتحتهما عين خرازة يقال لها عين مخلص تجتمع فيها، ومن هناك منبعث نهر سهر" (البكري، 1992، ج2، ص724).

-مدينة بسكرة: هي قاعدة بلاد الزاب، وتتميز أنها تقع عند ملتقى جبال الأوراس (الأطلس الصحراوي) وإقليم الزاب (مقدمة الصحراء) في منطقة انتقالية تنحدر نحو الجنوب منفتحة على منخفض الصحراء، وقد تأسست مدينة بسكرة في العهد الروماني تحت اسم (Vescera)، وهو يعني محطة التبادل التجاري، نظرا لموقعها الذي يربط بين الشمال والجنوب (بن غضبان، ص62)، ومما زاد من أهمية هذه المدينة توفرها على واد كبير يشق غابتها وقراها. (مجهول، 1986، ص173)، وقد استوطنت هذه المدينة عدة قبائل ومنها قبائل بربرية كسدراتة ومغراوة. (الحميري، 1980، ص113)

-مدينة طبنة: مدينة قديمة، وهي من إقليم الحضنة ما بين الزاب والتل، ويذكر الإدريسي أن من المسيلة إلى طبنة مرحلتان، وطبنة مدينة الزاب. (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص263). ويُعلمنا البكري أنها من بناء المنصور أبي الدوانيق، ويقال إن الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلي المعروف بهازرمرد (البكري، 1992، ج2، ص711). ويحدد لنا ابن خلدون تاريخ بناء مدينة طبنة بأنه كان في عام 151هـ/768م، وقامت قبيلة ورفجومة بالحجرة إليها، والاستقرار بها. (ابن خلدون، 1988، ج6، صص136، 151) وحدد ابن حوقل القبائل التي كانت تقطنها بقوله: "وأهلها قبيلتان عرب وبرقجانه". (ابن حوقل، 1938، ج1، ص85).

-مدينة بونة (عنابة): كانت في القديم مركزا قرطاجيا، ثم أصبحت مرسى رومانيا تحت اسم هييون، ومن بعد صارت بونة في الفترة الإسلامية مدينة العناب، وهي تقع على مقربة من واد سيبوز (المدني، 1350هـ، ص223)، وقد وصف ابن حوقل مدينة بونة بقوله: "ومدينة بونة مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالأربس وهي على نحر البحر". (ابن حوقل، 1938، ج1، ص75)، وقد استوطن مدينة بونة قبائل كثيرة من البربر كمصمودة وأوربة، كما أقامت بها قبائل عربية من بني هلال وغيرهم. (البكري، 1992، ج2، ص717) (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص291).

-مدينة جزائري مزغنة: هي مدينة قديمة، وفيها بعض الآثار كما يذكر البكري، مما يدل على أنها كانت دار لإحدى الممالك في العصور القديمة (البكري، 1992، ج2، ص732)، بينما يذهب توفيق المدني إلى أن هذه المدينة كانت في القديم تحمل اسم ايكسيوم، وكانت في أيام الاحتلال الروماني قليلة الأهمية، ثم خربت أثناء هجمات الوندال وثورات البربر، وأصبحت مستقرا لقبيلة بربرية تدعى بني مزغنة بكسر الميم والغين وسكون الزاي وتشديد النون، وفي القرن العاشر الميلادي أسس بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي مدينة دعاها جزائر بني مزغنة لأن صخورا كانت أمام مركز الجزائر، ثم استوطن الجزائري إحدى القبائل

العربية وهي قبيلة الثعالبة (المدني، 1350هـ، ص223)، ويذكر لنا الوزان أن بقرب المدينة نهر من الجهة الشرقية عليه طاحونات، ويزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى. (الوزان، 1983، ج2، ص37).

-مدينة مستغانم: هي لفظة اشتقت من اسم الميناء الروماني موريسستا (Murustaga) أو نسب إليها، أو هي كما يذكر ريني باسي (René Basset) هي مركبة من كلمتين: الأولى عربية وهي مشتة وتعني كوخ، والثانية بربرية غنم وتعني القصب، وهي مدينة بقرب وادي الشلف، بينها وبين قلعة مغيلة دلول مسيرة يومين، وهي مدينة مسورة. (البكري، 1992، ج2، ص737). ويذكر المؤرخون أنها كانت في الفترة الإسلامية تابعة لقبيلة مغراوة البربرية التي اعتنق زعيمها الدين الإسلامي، وهو صولات بن وزمار في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ فأقره على حكم قومه، وكانت تمتد إمارته من الشلف إلى تلمسان إلى جبل مديونة وما إليها، وفي النصف الأول من القرن 5هـ/11م غزت القبائل الهلالية بلاد المغرب الأوسط، واستقر عدد منهم بمدينة مستغانم (ابن خلدون، 1988، ج7، ص34) (بلجوزي، 2012، ص ص192-194).

-مدينة مليانة: مدينة في أحواز أشير من أرض المغرب بين تنس والمسيلة وبقرب وادي الشلف، وهي مدينة رومية فيها آثار، وهي ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء، جدها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلكين (البكري، 1992، ج2، ص725)، ويذكر الوزان أن الرومان أطلقوا على مليانة اسم مكنانة، لكن العرب حرفوا هذا الاسم، وهي تقع في قمة جبل على بعد نحو أربعين ميلا من البحر أي عن شرشال (الوزان، 1983، ج2، ص35)، وفي جنوبها الجبل المسعى بجبل وانشرس يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة وحرسون وأوربة وبنو أبي خليل وكتامة ومطماطة وبنو مليت وبنو وارتجان وبنو أبي خليفة ويصلاتن وزولات وبنو واتمشوس وزواوة ونزار ومططرة ووارترين وبنو أبي بلال وايزكروا وبنو أبي حكيم وهوارة، وطول هذا الجبل أربعة أيام وينتهي طرف هذا الجبل إلى قرب تاهرت (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص253).

نلاحظ من خلال ما سبق أن كل هذه المدن التي ذكرناها قد تم بنائها على ضفاف الأودية أو بالقرب منها، وهذا يدل على أهمية الأودية في بناء وظهور المدن والقرى، وفي كونها من أهم العوامل المشجعة على التعمير والاستقرار البشري.

3- دور أودية المغرب الأوسط في ظهور الزراعة حول مدن المغرب الأوسط وازدهارها:

نظرا لتوفر بلاد المغرب الأوسط على مصادر مياه متنوعة ومنها الأودية فقد أدى ذلك إلى ظهور الزراعة وازدهارها، وسنحاول ذكر بعض النماذج عن أهم الأنشطة الزراعية ببعض مدن المغرب الأوسط.

-تهمرت: سعى أهالي تهمرت إلى إقامة خزانات وأحواض للماء اكتشفها الأثريون، وكانت محكمة التصميم والهندسة، وهذا للحفاظ على المياه في مواسم الجفاف، بل إنهم قاموا بتوصيل المياه إلى بيوتهم وبساتينهم عن طريق شق القنوات ومد الأنابيب، وبالتالي ظهرت أهمية هذه الأودية في توفير مياه الشرب وفي سقي أراضيهم الزراعية، وفي هذا الصدد يذكر ابن حوقل ما نصه: "ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم، (ابن حوقل محمد، 1938، ج1، ص86) (بلهاري فاطمة، 2020، ص110-111) ونظرا لتزود المدينة بمياه الأودية مما جعلها تعتمد على نفسها في طحن حبوبها في مطاحن الخاصة بها، (خيرة سياب، 2014، ص69-70)، وقد ذكر لنا ابن الصغير اهتمام الدولة الرستمية بذلك فقال ما نصه: "ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات، وغرس البساتين وإجراء الأنهر، واتخاذ الرحاء والمستغلات وغيرها". (ابن الصغير، ص31)، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله: "وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم ويتصرفون بها، ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار تحمل ضروبا من الفواكه الحسنة" (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص256).

وقد أدى توفر مياه الأودية واهتمام أهالي تهرت بتخزين المياه بعدة تقنيات إلى كثرة البساتين، وتنوع المحاصيل الزراعية كزراعة الحبوب، والعصفر والكتان والسمسم، والنخيل ومختلف الفواكه والتين والزيتون، وكان يكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات فكانت تدر عليهم أرباحاً طائلة، (ابن حوقل محمد، 1938، ج1، ص86) (خيرة سياب، 2014، ص67-70) وقد أكد ذلك صاحب كتاب الاستبصار بقوله: "ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس، ومنه تشرب أرضها وبساتينها، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار، وفيها سفر جل يفوق سفرجل جميع البلاد حسناً وطعماً ورائحة"، وقد ذكر لنا البكري أن سفرجلها يسمى الفارسي. (مجهول، 1986، ص178) (البكري، 1992، ج2، ص734)، كما اهتم التهرتيون بتربية الحيوانات كالدوابّ والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية، والخيل والبقر (ابن حوقل محمد، 1938، ج1، ص86) (الحميري، 1980، ص126).

-قلعة بني حماد: يطلق عليها كما ذكرنا من قبل قلعة أبي طويل، وهي تقع على نهر عظيم كثير الزرع وجميع الخيرات (مجهول، 1986، ص167)، وأحسنها قصوراً ومسكن، وأعمها فواكه وخصباً، وحنطتها رخيصة ولحومها طيبة سمينه، (الحميري، 1980، ص469)، ومن أشهر نباتاتها الفوليون وكانوا كما يذكر الحميري يدعون أن من يشرب ماء هذا النبات وزن درهمين منه لعام كامل لا يصيب شاربها ألم تلك العقارب، وهذا مشهور عندهم (الحميري، 1980، ص469)، ونتيجة لتوفر قلعة بني حماد على المياه، ومنها مياه الأودية فقد اشتهرت بزراعة الحبوب، وقد أكد لنا لوسيان غولفان (Lucien Golvin) أنه قد عثر أثناء حفرياته بقلعة بني حماد على مطامير كثيرة محفورة في صحن قريبة من قصر السلام (بورويبة رشيد، ص130).

-بجاية: استغل حكام مدينة بجاية ومن جاء من بعدهم النهر القريب منها، فقاموا بزراعة الكثير من البساتين والجنات، وتمت صناعة نواير تسقى من النهر (عويس، 2002، ص104). ومن أهم المزروعات كما يذكر الحميري الحنطة والشعير، والتين، وسائر الفواكه، كما كانت تتوفر على دار صناعة لإنشاء الأساطيل لأن الخشب في أوديتها وجبالها كان متوفر بكثرة. (الحميري، 1980، ص80)، وأما الإدرسي فقد وصف لنا الأوضاع الزراعية ببجاية بقوله: "والحنطة تخرن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الإنسان بالثمن اليسير ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب لأنها بلاد زرع وخصب وفلاحهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت فأهلها أبد الدهر شباع وأحوالهم صالحة". (الإدرسي، 1409هـ، ج1، ص261)، وأما البلوي فقد ذكر لنا دور وادي بجاية في ظهور الكثير من الحداثق والجنات بقوله: "يمتد أمامها بسيط أخضر، مد البصر قد أجرى الله فيه مذانب الماء تسقيه، وتضرب في نواحيه، كأنها سبائك اللجين ممدودة في بساط الزبرجد، محفوفة بالزمرد والعسجد، والبساتين ملتفة الأشجار، يانعة الثمار، والنهر الأعظم ينساب بين يديها قد انعطف عليها انعطاف السوار، والحداثق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فهي النضيرة الدوح، العذبة الأنهار،..." (البلوي، ج1، د.ت)، ص153).

-تلمسان: تم تزويد مدينة تلمسان من مجموعة من مصادر المياه كالأنهار المنحدرة من أعالي الجبال، وكثرة الينابيع والعيون التي تقع خارج الحصون، إضافة إلى مجموعة من القنوات التي مكنت منها مدينة تلمسان من الداخل والخارج، حيث تم إدراج الطين في بناء هذه القنوات، ودفن ما كان خارجاً منها على الحصون تحت الأرض، وكانت هذه القنوات المدفونة خارج المدينة عبارة عن الأنبوب الرئيسي الذي تزودت منه البساتين والصهاريج توصل مياهه بالدور والمنازل التي وضعت خصيصاً لتزويد المدينة بماء الشرب (دكتوراه، ص72)، ونظراً لتوفر مدينة تلمسان على مصادر متنوعة من المياه، ومنها واد سطفسيف. مما مكن الساكنة من الاستقرار وممارسة النشاط الزراعي (سياب، 2014، ص75) مما أدى إلى ظهور قرى ومدن كثيرة وعمائر متصلة. (الحميري، 1980، ص135)، ويذكر البكري أن مدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها أسواق ومساجد ومسجد جامع وأشجار وأنهار

عليها الطواحين، وهو نهر سطفسييف (البكري، 1982، ج2، ص746)، ويذكر لنا الإدريسي الدور الكبير للوادي الذي يمر على المدينة بقوله: "وهذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه أرحاء كثيرة، وما جاورها من المزارع كلها مسقي وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة ولحومها شحيمة سمينّة". (الإدريسي، 1409، ج1، ص248)، ويذكر لنا الدور الذي يؤديه وادي سطفسييف بقوله: "نهر سطفسييف ويصب في بركة عظيمة ... ثم ينبثق من تلك البركة بحكمة مدبرة إلى موضع يسمى المهرار فيسقي هناك مزارع وأولجاً كثيرة تسمى أولاج الجنان، وتلك المواضع من أجل بقاع تلك البلاد" (الحميري، 1980، ص135). ويذكر الوزان أن بتلمسان عدة أنواع من الخضر والفواكه ومنها الكروم المعروشة الممتازة التي تنتج عدة أصناف من العنب الطيب المذاق، وأنواع من الكروز الكثيرة، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جداً، يُجفف ليؤكل في الشتاء، والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار، وغيرها من الفواكه المختلفة. وعلى بعد نحو ثلاثة أميال شرق المدينة ترى عدة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف (سطفسييف).... (الوزان، 1983، ج1، ص20).

نلاحظ من خلال النصوص التي ذكرها لنا المؤرخون والجغرافيون الدور الكبير الذي كانت تؤديه الأودية في الاستقرار وممارسة النشاط الزراعي والذي أدى بدوره إلى تنوع المحاصيل الزراعية ووفرته.

-المسيلة: أدى توفر هذه المدينة على وادي سهر إلى ازدهار النشاط الزراعي، فكثّر إنتاج الخضر والفواكه، وتم زراعة الكثير من البساتين والجنات، وفي هذا الصدد يذكر ابن حوقل ما نصه: "ولهم عليه كروم وأجنّة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم ولهم من السفرجل المعتق ما يحمل الى القيروان، وأصله من تنس ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام والبقر". (ابن حوقل، 1938، ج1، ص ص85-86)، ويذكر لنا البكري توفر هاته المدينة على فواكه كثيرة وثمار عديدة بقوله: "وفواكه كثيرة، وهي رخيصة الطعام واللحم وجميع الثمار، فنتار عنب فيها بدرهم" (البكري، 1992، ج2، ص724). وأما الإدريسي فيصف لنا اهتمام سكان مدينة المسيلة بالزراعة وتربية الحيوانات: "ولها مزارع ممتدة أكثر مما يحتاج إليه ولأهلها سوائم خيل وأغنام وأبقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع قطن وقمح وشعير"، ويضيف الإدريسي أن مياه وادي المسيلة عذبة، وأنه يتوفر على الأسماك: "وهو عذب وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الأرض المعمورة سمك على صفته وأهل المسيلة يفتخرون به ويكون مقدار هذا السمك من شبر إلى ما دونه وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل إلى قلعة بني حماد وبينهما اثنا عشر ميلاً". (الإدريسي، 1409هـ، ج1، ص254).

-بسكرة: اشتهرت بكرة بكثرة نخيلها، ولهذا تعرف ببسكرة النخيل (الحموي، 1995، ج1، ص422)، وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار... وحواليها بساتين كثيرة، وهي في غابة كبيرة مقدار ستّة أميال فيها أجناس التمر، منها جنس يعرفونه بالكسبا وهو الصيحاني يضرب به المثل لفضله على غيره، وحنس يعرف بالباري أبيض أملس كان عبید الله الشيعي يأمر عمّاله بالمنع من بيعه والتحظير عليه وبعث ما هنالك منه إليه، وأجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها غيرها...."، ويبرز لنا البكري أهمية ودور واد بسكرة بقوله: "داخل المدينة جنان يدخل إليها الماء من النهر" (البكري، 1992، ج2، ص ص713-714). وأما الحميري فيذكر بأن نهر بسكرة يقوم بسقي البساتين والنخيل: "ويشق غابة بسكرة نهر كبير ينحدر من جبل أوراس يسقي بساتينها ونخيلها وهو نحو ستة أميال في غابة متصلة بالمدينة سوى غابات كورها وقراها. وحول بسكرة أرباض خارجة عن الخندق (الحميري، 1980، ج2، ص113).

-طبنة: نظرا لتوفر مدينة طبنة على موارد مائية هامة، ومنها وادي بيطام فقد اشتهرت هاته المدينة بوفرة محاصيلها الزراعية وتنوعها، وفي هذا الصدد يذكر ابن حوقل ما نصه: "وكانت عظيمة كبيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير ... وأكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم".

(ابن حوقل، 1938، ج 1، ص 85). وأما البكري فيذكر أنهم كانوا يقولون بيطام بيت الطعام لجودة زرعها (البكري، 1992، ج 2، ص 712). ويصف الإدريسي طينة بأنها مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير وعليها سور من تراب وأهلها أخلاط وبها صنائع وتجارات وأموال لأهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه". (الإدريسي، 1409هـ، ج 1، ص 263).

-بونة (عنابة): اشتهرت مدينة بونة بمحاصيلها الزراعية المتنوعة، وفي هذا الصدد يذكر ابن حوقل ما نصه: "وفيها خصب ورخص موصوف وفواكه وبساتين قريبة وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أكثر أوقاتها كما لا قدر له،... ويزرع بها الكتّان... وبها من العسل والخير والمير ما تزيد به على ما داناها من البلاد المجاورة لها وأكثر سوائمهم البقر". (ابن حوقل، 1938، ج 1، ص 75)، وأما البكري فيذكر بأنها كثيرة اللحم واللبن والحوت والعسل وأكثر لحماهم البقر. (البكري، 1992، ج 2، ص 717). بينما يصفها الإدريسي بقوله: "ولها بساتين قليلة وشجر وبها من أنواع الفواكه ما يعم أهلها وأكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في أوقات الإصابات... ويزرع بأرضها الكتان والعسل بها موجود ممكن وكذلك السمن وأكثر سوائمهم البقر (الإدريسي، 1409هـ، ج 1، ص 291).

-جزائري مزغنة: لقد ربط الحسن الوزان حول علاقة مدينة جزائر بني مزغنة بالمياه بين خاصيتين مهمتين، حينما ركز على وفرة هذه الثروة عن طريق الإشارة إلى الطواحين التي لا يمكن أن توجد إلا بسبب توفر المياه حيث قال: "ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية نهر عليه طاحونات، ويزود السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى". (الوزان، 1983، ج 2، ص 37) وقد ركز الوزان على موقع المدينة في سهل خصيب جدا تحيط به جداول ماء كبيرة وبساتين (سياب، 2014، ص ص 86-87). ويذكر البكري أن مدينة متيجة القريبة من الجزائر مقامة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين...، ولها مزارع ومسارح وهي أكثر تلك النواحي كثّانا ومنها يحمل، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء. (البكري، 1992، ج 2، ص 732)، وفي هذا إشارة بالغة الأهمية إلى اعتماد سكان بلاد المغرب الأوسط على المياه، ومنها مياه الأودية لتوفير مصادر عيشهم كتوفر الطواحين المقامة على الأودية والعيون التي تعتمد على مياه التدوير لطحن الغلال الزراعية، وفي هذا أهمية اقتصادية مكنت من استقرار السكان وممارستهم للنشاط الزراعي (سياب، 2014، ص 87).

-مستغانم: نظرا لقرب هاته المدينة من مصب واد الشلف فقد أدى ذلك إلى ظهور العديد من البساتين، إلى ازدهار النشاط الزراعي، وقد ذكر لنا البكري أن هذه المدينة تتوفر على عيون وبساتين وطواحين ماء، ويبذر في أرضها القطن فيجود، وهي بقرب مصب نهر شلف. (البكري، 1992، ج 2، ص 737)، وأما الحميري فقد وصف المدينة بأنها ذات جنات وبساتين ومياه كثيرة وسور على جبل مطل إلى ناحية المغرب، وهي صغيرة (الحميري، 1980، ص 558)، وعند مصب واد الشلف كما يذكر الوزان كان يصطاد كميات وافرة من السمك الجيد، ومنه الكبير والصغير (الوزان، 1983، ج 2، ص 251).

-مليانة: نظرا لقرب مدينة مليانة من وادي الشلف فقد أعطاهما بعدا حضاريا مميزا بين مدن المغرب الأوسط من حيث الاكتفاء الذاتي من ناحية الثروة المائية والاستقلالية في ناحية مصانع الأرحاء التي ساعدها على إنشاءها وقوعها بالقرب من وادي الشلف، وقد أشار البكري إلى ذلك بقوله: "ذات أشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء". (البكري، 1992، ج 2، ص 725)، بينما ذكر لنا الإدريسي إلى كثرة المزارع والحدائق، والدور الهام لوادي الشلف في ذلك بقوله: "وهي حسنة البقعة كريمة المزارع، ولها نهر يسقي أكثر حدائقها وجناتها وجاني مزارعها، ولها أرحاء بنهرها المذكور، ولأقاليمها حظ من سقي نهر شلف (الإدريسي، 1409هـ، ج 1، ص 253). لقد أمدتنا هذه النصوص لقضايا في منتهى الأهمية الحضارية حيث أن مدينة مليانة في الفترة الإسلامية لم تبعد عن

عديد مدن المغرب الإسلامي بشكل خاص، فقد توفرت المدينة على روافد حضارية من بينها وجود الأودية كان أبرزها واد الشلف، ودوره في وجود مصانع الطحن مما يدل على أن المدينة كانت تتمتع باكتفاء ذاتي في الإنتاج الزراعي (سياب، 2014، ص 90).

المدينة	الوادي	أهم المحاصيل الزراعية
تهرت	مينة، نانس	الحبوب، العصفور، الكتان، السمسم، التين، الزيتون، العسل
قلعة بني حماد	وادي فرج	الفوليون، الحنطة، الفواكه
بجاية	الوادي الكبير (الصومام)	الحنطة، الشعير، التين، الفواكه
تلمسان	سطفسييف	التين، الخوخ، الحوز، اللوز، البطيخ، الخيار، القمح
المسيلة	وادي سهر	الحنطة، الشعير، الكروم، القطن، العنب، السمك
الأغواط، المدينة، مليانة، الشلف، مستغانم.	الشلف	القطن، السمك
بسكرة	وادي بسكرة	التمر، الزيتون
طبنة	وادي بيطام	الزروع والقطن والحنطة والشعير. الكتان وجميع الحبوب
بونة	يدوش (سيبوز)	اللبن، والحوت والحنطة والشعير. الكتان، القمح، السمن، العسل

الجدول رقم 1 : بعض مدن بلاد المغرب الأوسط والأودية التي تمر عليها وأهم المحاصيل الزراعية المصدر: من إنجاز الباحث

نلاحظ من خلال الجدول أن عواصم الدول التي قامت بالمغرب الأوسط كالدولة الرستمية وكانت عاصمتها تهرت، والدولة الحمادية التي كانت عاصمتها قلعة بني حماد ثم بجاية، أو الدولة الزيانية التي كانت عاصمتها تلمسان، فهذه العواصم كلها قد تم انشاؤها على ضفاف الأودية أو بالقرب منها.

خاتمة:

من خلال ما سبق تبرز لنا المكانة الهامة لأودية بلاد المغرب الأوسط باعتبارها عاملا رئيسيا من عوامل جذب واستقرار السكان، ذلك أنه على ضفافها نشأت أهم مدن وقرى بلاد المغرب الأوسط كما تذكر لنا المصادر التاريخية، دون أن نغفل الدور الكبير الذي ساهمت به مياه هاته الأودية في إنتاج المحاصيل الزراعية وازدهارها، وحتى في أوقات الجفاف التي عمل حكام تلك الدول على بناء السدود لتخزين مياه هاته الأودية، والاستفادة منها في المجالات المختلفة، وخاصة المجال الزراعي، والحيلولة دون ضياعها في مياه البحر، وقد عمل هؤلاء على تنوع أساليب الاستفادة من مياه الأودية حتى تكون عاملا مهما للتنمية المحلية،

وهذا ما أدى في النهاية إلى الاكتفاء الذاتي، وتحقيق الأمن الغذائي في بعض المحاصيل الزراعية الاستراتيجية الذي يؤدي انعدامه إلى تهديد أمن الدولة واستقرارها.

ومن أهم التوصيات في هذا المقام نذكر ما يلي:

- عملاً بالمقولة التاريخية " التاريخ يعيد نفسه " واستئناساً بالسياسة التي انتهجها السابقون في استغلال الموارد المائية والحفاظ عليها تبرز ضرورة الاهتمام بالماء في وقتنا الحاضر بمختلف مصادره من أودية ومياه جوفية وأمطار متساقطة، وأهمية بناء المنشآت القاعدية للحفاظ على هذا المورد الحيوي والاستغلال الأمثل له عند الضرورة (أوقات الجفاف وندرة المياه وقلتها) كالسدود وخزانات المياه.

- ضرورة استغلال المياه الجوفية -المتسربة عن مصبات الوديان وخاصة تلك المخزنة في الطبقات السفلى من القشرة الأرضية- واستخدامها في التنمية الزراعية، والعمل على زيادة استصلاح الأراضي الزراعية للاستفادة من هاته الثروة المائية الجوفية الهامة. -تنظيم مثل هذه الدورات العلمية التي تهدف إلى لفت نظر المسؤولين إلى هذه الثروات الطبيعية التي تزخر بها، والعمل على توفير كل الإمكانيات المتاحة لاستغلالها والاستفادة منها بما يخدم الفرد والمجتمع على حد سواء.

-قائمة المصادر والمراجع

- 01- الإدريسي محمد بن محمد (ت. 560هـ/1165م)، 1409هـ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت-لبنان.
- 02- ابن الأثير علي (ت. 630هـ/1233م)، 1997، الكامل في التاريخ، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان.
- 03- بوشناق منير، (د. ت)، المدن القديمة في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 04- بلجوزي بوعبدالله، ((المراحل التاريخية لمدينة مستغانم من الفتح الإسلامي إلى القرن 9هـ/15م))، مجلة منبر التراث الأثري، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان، المجلد 01، العدد 01، ص ص 191-201.
- 05- بلهوارى فاطمة، ((هندسة الري وطرقه في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة))، مجلة عصور، جامعة وهران 01، المجلد 19، العدد 02، ص ص 104-123.
- 06- البلوي خالد بن عيسى (ت. بعد 767/1365م)، (د. ت)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق: الحسن السائح، مطبعة فضالة، المحمدية-المملكة المغربية.
- 07- الوزان الحسن بن محمد (ت. نحو 957هـ/1550م)، 1983، وصف إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
- 08- ابن حوقل محمد (ت. بعد 367هـ/978م)، 1938، صورة الأرض، دار صادر، بيروت-لبنان.
- 09- الحموي ياقوت (ت. 626هـ/1229م)، 1995، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت-لبنان.
- 10- الحميري محمد بن عبد الله (ت. 900هـ/1495م)، 1980، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت-لبنان.
- 11- كريخال مارمول (ت. 1009هـ/1600م)، 1984، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية: محمد حجي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط-المملكة المغربية.
- 12- القزويني زكريا بن محمد (ت. 682هـ/1283م)، (د. ت)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت-لبنان.
- 13- مجهول (ت. ق 6هـ/12م)، 1986، الاستبصار في عجائب الأمصار، دار الشؤون الثقافية، بغداد-العراق.
- 14- المدني أحمد توفيق، 1350هـ، كتاب الجزائر، المطبعة العمريّة.

- 15- المليي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (د.ت)، تقديم وتصحيح: محمد المليي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
- 16- المقدسي محمد بن أحمد (ت. نحو 380هـ/990م)، 1411هـ/1991م، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مديبولي القاهرة-مصر.
- 17- النويري أحمد بن عبد الوهاب (ت. 733هـ/1333م)، 1423هـ، نهاية الإرب في فنون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة-مصر.
- 18- ابن سباهي زاده (ت. 997هـ/1589م)، 1427هـ/2006م، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تحقيق: المهدي عيد الرواضية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان.
- 19- سياب خيرة، (1434-1435هـ/2013-2014)، المياه ودورها الحضاري في بلاد المغرب الإسلامي (7-10هـ/13-16م)، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، التاريخ والحضارة الإسلامية، وهران-الجزائر.
- 20- ابن سعيد علي بن محمد (ت. 685هـ/1286م)، 1970، كتاب الجغرافيا، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه: إسماعيل العربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان.
- 21- عويس عبد الحليم، 2002، دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة-مصر.
- 22- عمورة عمار، 2002، موجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة للنشر والتوزيع، القبة-الجزائر.
- 23- بن عميرة محمد وبشاري لطيفة، 1436هـ/2015م، تاريخ بجاية في مختلف الأنظمة السياسية من عهد القرطاجيين إلى عهد الأتراك العثمانيين، ط1، دار الفاروق للنشر والتوزيع، الجزائر.
- 24- ابن عذارى محمد بن محمد (كان حيا 712هـ/1312م)، 1983، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، إ. ليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة، بيروت - لبنان.
- 25- ابن الصغير (ق 3هـ/9م)، 1986، أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق: محمد ناصر وإبراهيم بحاز، المطبوعات الجميلة، الجزائر.
- 26- القطيعي عبد المؤمن بن عبد (ت. 739هـ/1338م)، 1412هـ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت-لبنان.
- 27- ابن غضبان فؤاد، 2015، ((أثر التحولات الاجتماعية والاقتصادية على النية التجارية للمدن الصحراوية الجزائرية. دراسة في مدينة بسكرة-الجزائر))، مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد 22، ص 59-70.